

الظلم ظلمات وارتكابه لعنات

خميس النقيب

مقالات متعلقة

تاريخ الإضافة: 9/3/2014 ميلادي - 8/5/1435 هجري

الزيارات: 28377

الظلم ظلمات وارتكابه لعنات

مع تفشِّي الظلم في المجتمعات ربما يسأل سائل:

لماذا يُترك الظالِم هكذا دون أن يُوقِفه الله؟

لماذا يحلم القادر القاهر عليه؟

مرَّ رجل برجل قد صلبه الحجاج، فقال: يا رب، إن حلمك على الظالِمين قد أضر بالمظلومين، فنام تلك الليلة، فرأى في منامه أن القيامة قد قامت، وكأنه قد دخل الجنة، فرأى ذلك المصلوب في أعلى علِّيين، وإذا منادٍ ينادي: حلمي على الظالمين أحلَّ المظلومين في أعلى عليين.

وأظلمُ الناس مَن ظلم لغيره؛ أي لمصلحة غيره، باع آخرته بدنيا غيره!

لذلك قال علي بن أبي طالب رضي الله عنه: يوم المظلوم على الظالِم أشدُّ من يوم الظالِم على المظلوم، وكان معاويةُ رضي الله عنه يقول: إني لأستحيي أن أظلم مَن لا يجد عليَّ ناصرًا إلا الله!

ظاهرةٌ تفشَّت في المجتمعات العربية والإسلامية بطريقة فجَّة، طالت الكبير والصغير، الغني والفقير، الحاكم والمحكوم، الرجل والمرأة، الشاب والفتاة، إلا ما رحم ربي وعصم! إنها ظاهرة الظلم، وفي طريق الظلم قد لا يشعر الظالِم بظلمه، بل يستمرئ الظلمَ، ويستعذب الجَور، مع أنه مراقب على مدار اللحظة، مُشاهَد على طول الطريق، كيف؟ ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلًا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ ﴾ [إبراهيم: 42].

لا تظلمنَّ إذا ما كنت مقتدرًا فالظلم آخره يأتيك بالندمِ

نامَت عيونُك والمظلوم منتبهٌ يدعو عليك وعينُ الله لم تنَمِ

قال أبو الدرداء رضي الله عنه: "إياك ودمعة اليتيم، ودعوة المظلوم؛ فإنها تسري بالليل والناس نيام".

إن الظالِم معلوم لدى الذي بيده الأمر، ﴿ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ ﴾ [البقرة: 95].

القوة العظمى تترصَّد للظالم، ﴿ إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ ﴾ [الفجر: 14] تراقبه، تُمهله، لكنها لا تُهمله، فإذا أخذته لن تفلته!

نبي الله يقول: ((إن الله يُملِي للظالم، فإذا أخذه لم يفلته)) ثم قرأ: ﴿ وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَى وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ﴾ [هود: 102].

شارون ظل ما يقارب السبع سنوات بين الحياة والموت، ﴿ وَيَأْتِيهِ الْمَوْتُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ ﴾ [إبراهيم: 17]، لم تُمهِله صحته، ولم تنصُرْه قوته، ولم تسعفه بطانته، ﴿ فَمَا كَانَ لَهُ مِنْ فِئَةٍ يَنْصُرُونَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُنْتَصِرِينَ ﴾ [القصص: 81].

وهناك عند القوي القاهر الغالب: ﴿ وَلَوْ تَرَى إِذِ الظَّالِمُونَ فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ وَالْمَلَائِكَةُ بَاسِطُو أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوا أَنْفُسَكُمُ الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنْتُمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ وَكُنْتُمْ عَنْ آيَاتِهِ تَسْتَكْبِرُونَ ﴾ [الأنعام: 93].

ليتذكر كل ظالم الموت وسَكرته، والقبر وظلمته، والميزان ودقَّته، والصراط وزلَّته، والحساب وسرعته، والحشر وأحواله، والنشر وأهواله.

تذكر إذا نزل بك ملك الموت ليقبضَ روحك، وإذا أُنزلت في القبر مع عملك وحدَك، هناك يتخلَّى عنك البعيد والقريب، والعدو والصديق، والطبيب والحبيب، وهناك ينادي المنادي: "جاؤوا بك وتركوك، وفي التراب وضعوك، ولو ظلوا معك ما نفعوك، ولا ينفعك إلا أنا، وأنا الحي الذي لا أموت"!

ثم تدعى للحساب في يوم يطول فيه وقوفك، ومن ثَمَّ استغاثاتك، ﴿ إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا وَإِنْ يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ بِئْسَ الشَّرَابُ وَسَاءَتْ مُرْتَفَقًا ﴾ [الكهف: 29].

هذا رجل كان له خصومٌ ظَلَمة، فشكاهم إلى أحمد بن أبي داود، فقال: قد تضافروا عليَّ وصاروا يدًا واحدة، فقال: يد الله فوق أيديهم، فقلت له: إن لهم مكرًا، فقال: ولا يحيق المكر السيئ إلا بأهله، قلت: هم من فئة كثيرة، فقال: كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله.

وقال يوسف بن أسباط: مَن دعا لظالِم بالبقاء، فقد أحب أن يُعْصَى اللهُ في أرضه.

الظلم حرَّمه الله سبحانه وتعالى على نفسِه، وحرَّمه كذلك على خَلقه: ((يا عبادي، إني حرَّمتُ الظلم على نفسي، وجعلته بينكم محرمًا، فلا تظالموا))؛ رواه مسلم.

الظلم ظلمات، والشح من المهلكات، كيف؟

عن جابر أن رسول الله قال: ((اتَّقوا الظلم؛ فإن الظلم ظلمات يوم القيامة، واتقوا الشح؛ فإن الشح أهلك مَن كان قبلكم، حملهم على أن سفكوا دماءهم واستحلوا محارمهم))؛ رواه مسلم.

وقوله عليه الصلاة والسلام: ((لتؤدُّنَّ الحقوق إلى أهلها يوم القيامة حتى يُقادَ للشاة الجلحاء من الشاة القرناء))؛ رواه مسلم.

والظلم ثلاثة أنواع: (ظلم الإنسان لربه، وظلم الإنسان لغيره، وظلم الإنسان لنفسه)).

النوع الأول: ظلم الإنسان لربه؛ وذلك بكفره: ﴿ وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴾ [البقرة: 254]، أو شركه في عبادته، وذلك بصرف بعض عبادته لغيره: ﴿ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴾ [لقمان: 13].

يشك في عدل الله، وفي حفظه لأوليائه، وعنايته لأصفيائه، ذُكِر أنه جاءت امرأةٌ غاضبة إلى داود عليه السلام وقالت: يا نبي الله، أربُّك ظالِم أم عادل؟ فقال داود: ويحك يا امرأة، هو العدل الذي لا يجورُ، ثم قال لها: ما قصتك؟

قالت: أنا أرملة، عندي ثلاث بنات، أقوم عليهن من غزل يدي، فلما كان أمس شددت غزلي في خرقة حمراء، وأردت أن أذهب إلى السوق لأبيعه وأطعم به أطفالي، فإذا أنا بطائر قد انقضَّ عليَّ وأخذ الخرقة والغزل وذهب، وبقيت حزينة لا أملك شيئًا أبلغ به أطفالي.

فبينما المرأة مع داود عليه السلام في الكلام إذا بالباب يطرق على داود، فأذن له بالدخول، وإذا بعشرة من التجار كل واحد بيده: مائة دينار، فقالوا: يا نبي الله، نريد أن نتصدق بها، فأعطها لمن يستحقها، فقال لهم داود عليه السلام: ما سبب حملكم هذا المال؟ قالوا: يا نبي الله، كنا في مركب، فهاجت علينا الريح، وأشرفنا على الغرق، فإذا بطائر قد ألقى علينا خرقة حمراء، وفيها غزل، فسددنا به عيب المركب، فهانت علينا الريح وانسد العيب، فنذرنا لله أن يتصدَّق كلٌّ واحد منا بمائة دينار، وهذا هو المال بين يديك، فتصدق به على مَن أردت.

فالتفت داود عليه السلام إلى المرأة وقال لها: ربٌّ يتاجرُ لكِ في البَرِّ والبحر، وتجعلينه ظالمًا، وأعطاها الألف دينار، وقال: أنفقيها على أطفالك.

النوع الثاني: ظلم الإنسان لغيره من عباد الله ومخلوقاته؛ وذلك بأكل أموال الناس بالباطل، وظلمهم بالضرب والشتم، والتعدي على الضعفاء، والظلم يقع غالبًا بالضعيف الذي لا يقدر على الانتصار.

قال رسول الله: ((مَطلُ الغني ظلم))؛ متفق عليه؛ منع أجر الأجير.

عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: ((قال الله تعالى: ثلاثة أنا خصمهم يوم القيامة: رجل أَعطَى بي ثم غدر، ورجل باع حُرًّا ثم أكل ثمنه، ورجل استأجر أجيرًا فاستوفَى منه ولم يعطِه أجره))؛ رواه البخاري.

وهذه قصة واقعية حدثت في مكة:

كان رجل يعمل عند كفيلِه فلم يُعطِه راتب الشهر الأول والثاني والثالث، وهو يتردَّد إليه ويلح، وأنه في حاجة إلى النقود، وله والدان وزوجة وأبناء في بلده، وأنهم في حاجة ماسة، فلم يستجب له وكأن في أذنَيْه وقرًا، والعياذ بالله، فقال له المظلوم: حسبي الله، بيني وبينك، والله سأدعو عليك، فقال له: اذهَبْ وادعُ عليَّ عند الكعبة، وشتمه وطرده.

وفعلاً استجاب لرغبته ودعا عليه عند الكعبة بتحرّي أوقات الإجابة، على حسب طلبه، ويريد الله عز وجل أن تكون تلك الأيام من أيام رمضان المبارك، ﴿ وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ ﴾ [الشعراء: 227]، ومرَّت الأيام، فإذا بالكفيل مرِض مرضًا شديدًا لا يستطيع تحريك جسده،

وانصبَّ عليه الألم صبًّا، حتى احتجز في أحد المستشفيات فترة من الزمن، فعلم المظلوم بما حصل له، وذهب يعوده مع الناس، فلما رآه قال: أدعوت عليَّ؟ قال له: نعم، وفي المكان الذي طلبته مني، فنادى على ابنه، وقال: أعطِه جميع حقوقه، وطلب منه السماح، وأن يدعو له بالشفاء.

قال النبي عليه الصلاة والسلام: ((مَن اقتطع حق امرئ مسلم بيمينه، فقد أوجب الله له النار، وحرم عليه الجنة))، فقال رجل: وإن كان شيئًا يسيرًا يا رسول الله؟ فقال: ((وإن قَضيبًا من أراكٍ))؛ رواه مسلم.

ولقد عُذِّبتِ امرأةٌ في هرَّة حبستها حتى ماتت جوعًا، فدخلت فيها النار؛ رواه البخاري ومسلم. حبستها؛ أي: بدون طعام، فما البال بحبس الإنسان وتعذيبه وقتله؟!

عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: ((مَن كانت عنده مظلمة لأخيه؛ من عِرضِه أو من شيء، فليتحلَّلْه من اليوم قبل ألاَّ يكون دينار ولا درهم، إن كان له عمل صالح أخذ منه بقدر مظلمته، وإن لم يكن له حسنات أخذ من سيئات صاحبه فحمل عليه))؛ رواه البخاري.

وكان يزيد بن حاتم يقول: ما هِبْتُ شيئًا قط هَيْبَتي من رجل ظلمتُه، وأنا أعلم أن لا ناصر له إلا الله، فيقول: حسبي الله، الله بيني وبينك.

ونادى رجل سليمان بن عبدالملك - وهو على المنبر -: يا سليمان، اذكر يوم الأذان، فنزل سليمان من على المنبر، ودعا بالرجل، فقال له: ما يوم الأذان؟ فقال: قال الله تعالى: ﴿ فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌ بَيْنَهُمْ أَنْ لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ ﴾ [الأعراف: 44].

النوع الثالث: ظلم الإنسان لنفسه؛ وذلك باتباع الشهوات وترك الواجبات، وارتكاب الذنوب واقتراف السيئات، وإغضاب رب الأرض والسموات"، ﴿ وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾ [النحل: 33].

وهذا النوع من الظلم لا يؤاخذ صاحبه إن تاب وأناب، بل يُقرِّبه الله ويُدنِيه يوم الحساب، علم أن له ربًّا غفورًا يمحو السيئات، ويقيل العثرات، يغفر الذنب، ويقبل التوب، فعاد إليه ذليلاً بين يديه.

هذا شاب يختلي بفتاة في جوف الليل، فقال لها: السماء صافية، والكواكب ساهرة، ولا يرانا أحد، فقالت: وأين الذي كَوْكَبها، فنزع عن شيطانه ورجع عن ظلم نفسه.

يقول المصطفى: ((خير الخطَّائين التوابون))، والله يغفر ولا يظلم، كيف؟

قال تعالى: ﴿ رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾ [الأعراف: 23]، وفي يونس عليه السلام: ﴿ وَذَا النُّونِ إِذْ ذَهَبَ مُغَاضِبًا فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ * فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ وَكَذَلِكَ نُنْجِي الْمُؤْمِنِينَ ﴾ [الأنبياء: 87، 88].

اللهم جنِّبنا الظلم وبطانته وأَلْهِمنا العدل وأهله..
